ولاتسير دائماً على قواعد. والعرب لا يعرفون ما وضع النحاة، وهم إن فهموا منهم بعض النحو فإنهم لا يفهمون كلامهم فى الصرف.

قال عمار الكلبى وقد عيب عليه بيت من شعره:

مـــاذا لقـــينا من المســـتـــعـــربين ومن
قـياس نحـوهم هذا الذى ابتـدعـوا؟
إن قلت قـــافـــيـــة بكراً يكون بهـــا
بيت خـلاف الذى قـاسوه أو ذرعـوا
قـــالوا: لحنت. وهذا ليس منتـــصـــبـــاً
وذاك خـــفـض، وهذا ليس يرتفع
كم بين قـــوم قـــد احـــتـــالوا لمنطقـــهم
وبين قـــوم على إعـــرابهم طبـــعـــوا
مـا كل قـولى مـشـروحـاً لكم، فـخـذوا
مـا تعـرفـون، ومـا لـم تعـرفوا فـدعـوا

والنحاة ينقسمون – بصفة عامة – إلى طائفتين: طائفة تثبت القياس وتحتج له بالحجج والبراهين، وتمثل هذه الطائفة الجمهور الأكبر من النحاة، وطائفة تنكر القياس والتعليل وتجد الفرصة الكبيرة فى مهاجمة ما أسرف فيه الأولون من افتعال أقيسة متكلفة وإيجاد فروض وهمية وتعليلات لا أصل لها، وأهم من يمثل هذه الطائفة ابن مضاء القرطبى.

أما المحتجون للقياس فهم يحتجون لقياسهم ويرون أن «إنكار القياس فى النحو لا يتحقق لأن النحو قياس كله، ولهذا قيل فى حده: النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب. فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو، ولا نعلم أحداً من العلماء أنكره لثبوته بالدلائل القاطعة»[1]. وبعد أن ذكر ابن الانبارى أن منكر القياس منكر للنحو جعل يثبت حجية النحو

(١) ابن الأنبارى، لمع الأدلة، ص ٩٥، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغانى، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٧م.